﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فقد قال الله تعالى في صدر سورة الأعراف : ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾[الأعراف: ١ – ٢].

وجاءت أقوال المفسرين في بيان المراد بالحرج على أقوال؛ نجملها في قولين :

الأول: الشك، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝١٤٧﴾[البقرة: ١٤٧]

وقوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝٩٤﴾[يونس: ٩٤] قال بهذا ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، كما عند الطبري، وقال به مجاهد ، وقتادة ، والسدّي، وابن قتيبة، وغيرهم.

ومعلوم أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يفعل شيئاً من ذلك - حاشاه بأبي هو وأمي صلى الله عليه وسلم - فالنهي عن الشيء لا يقتضي وقوعه؛ ولكن الله تعالى يخاطبه ليوجه الخطاب إلى غيره في ضمن خطابه صلى الله عليه وسلم.

الثاني: الضيق، قال به أبو العالية وجمهور المفسرين، واختلفوا في هذا الضيق على اعتبارات ثلاثة:

أ- مخافة أن يكذبوك ويؤذوك بما تسمع من استهزائهم كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝٩٧﴾ [الحجر: ٩٧].

ب- أو خوفا ألّا تقوم بحقه، وبما يطلبون منك تعجيزاً كقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ۝١٢﴾[هود: ١٢].

ج- أو مخافة ألّا يؤمنوا ولا يستجيبوا، فإنما عليك البلاغ، كقوله تعالى : ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ [الشعراء: ٣].

وهناك من جمع بين القولين، قال ابن عطية، رحمه الله: " والحرج ها هنا يعم الشك والخوف والهم وكل ما يضيق الصدر ". المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٢/ ٣٧٢).

وقال ابن سعدي رحمه الله: " أي: ضيق وشك واشتباه، بل لتعلم أنه تنزيل من حكيم حميد {لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} وأنه أصدق الكلام فلينشرح له صدرك، ولتطمئن به نفسك، ولتصدع بأوامره ونواهيه، ولا تخش لائما ومعارضا". تفسير السعدي(ص: ٢٨٣).

وأمة القرآن مقصودة بهذا الخطاب بلا شك، إما أصالة أو تبعاً- كما تقدم- بل قد جعل الله تعالى رفع الحرج مما قضى به النبي صلى الله عليه وسلم شرطاً في تحقيق الإيمان، وهل كان قضاء النبي صلى الله عليه وسلم إلا بالوحي ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾[النساء: ٦٥].

ولذلك قال ابن القيم رحمه الله: " والله تعالى رفع الحرج عن الصدور بكتابه وكانت قبل إنزال الكتاب في أعظم الحرج والضيق فلما أنزل كتابه ارتفع به عنها ذلك الحرج وبقي الحرج والضيق على من لم يؤمن به كما قال تعالى {فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً}[الأنعام ١٢٥]" الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (٤/ ١٥١٨).

ثم شرع في سرد مجموعة من صور الحرج الذي ابتليت بها بعض النفوس فقال في كتابه التبيان:

١. فمن لم يؤمن بأنه حق من عند الله ففي قلبه منه حرج.

٢. ومن لم يؤمن بأن الله سبحانه تكلم به وحياً وليس مخلوقاً من جملة مخلوقاته ففي قلبه منه حرج.

٣. ومن قال إن له باطناً يخالف ظاهره وإن له تأويلاً يخالف ما يفهم منه ففي قلبه منه حرج.

٤. ومن قال إن له تأويلاً لا نفهمه ولا نعلمه وإنما نتلوه متعبدين بألفاظه ففي قلبه منه حرج.

٥. ومن سلط عليه آراء الآرائيين وهذيان المتكلمين وسفسطة المسفسطين وخيالات المتصوفين ففي قلبه منه حرج.

٦. ومن جعله تابعا لنحلته ومذهبه وقول من قلده دينه ينزله على أقواله ويتكلف حمله عليها ففي قلبه منه حرج.

٧. ومن لم يحكمه ظاهراً وباطناً في أصول الدين وفروعه ويسلم وينقاد لحكمه أين كان ففي قلبه منه حرج.

٨. ومن لم يأتمر بأوامره وينزجر عن زواجره ويصدق جميع أخباره ويحكم أمره ونهيه وخبره ويرد له كل أمر ونهي وخبر خالفه ففي قلبه منه حرج. التبيان في أقسام القرآن (ص: ٢٣١).

وزاد في الصواعق المرسلة:

٩ -فمن أقر أنه منزل من عند الله أنزله على رسوله ولم يقر بأنه كلامه الذي تكلم به بل جعله مخلوقا من جملة مخلوقاته كان في صدره من الضيق والحرج ما يناسب ذلك.

١٠ - ومن أقر بأنه تكلم بشطره وهو المعاني دون شطره الآخر وهو حروفه كان في صدره من الحرج منه ما يناسب ذلك.

١١ - ومن زعم أنه غير كاف في معرفة الحق وأن العباد يحتاجون معه إلى معقولات وآراء ومقاييس وقواعد منطقية ومباحث عقلية ففي صدره منه أعظم حرج .

١٢ - وأعظم حرجا منه من اعتقد أن فيه ما يناقض العقل الصريح ويشهد العقل بخلافه.

١٣ - وكذلك من زعم أن آياته لا يستفاد منها علم ولا يقين ففي صدره منه من الحرج ما الله به عليم.

١٤ - ومن زعم أن الخطاب به خطاب جمهوري يخيل للعامة ما ينتفعون به مما ليس له حقيقة في نفس الأمر ففي صدره منه أعظم حرج.

١٥ - ومن زعم أن أجل ما فيه وأشرفه وأفضله وهو قسم التوحيد المتضمن للأسماء والصفات مجازات واستعارات وتشبيهات لا حقائق ففي صدره منه أعظم حرج. الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة(٤/ ١٥١٩).

وهذه نماذج وبعض صور الحرج الذي يقع في النفوس المريضة، وهذه الصور ما تزال تتجدد في كل زمان ومكان بحسب بعدهم وإعراضهم عن الإيمان بالقرآن والتعظيم والتسليم والانقياد والقبول له وتقديره حق قدره، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾[طه: ١٢٤].

ومن هذه الصور الحديثة: ما يجده بعض المعاصرين المتأثرين بالعلمنة والحداثة واللبرلة وتلامذتهم، من الحرج من بعض آيات التوحيد والنهي عن الشرك وصوره، وآيات الولاء والبراءة من الكفار والمشركين، وآيات لعن وتكفير اليهود والنصارى، وآيات أحكام المرأة وحجابها وميراثها ووظيفتها، وآيات الربا والبيوع المحرمة، وآيات الكفر بالطاغوت والحكم بغير ما أنزل الله، وآيات الجهاد، وغيرها من النصوص التي يضيقون بها ذرعا، ويود أحدهم لو أنها ليست في المصحف؛ ولذا يتكلفون ويتعسفون لها التأويلات البعيدة ويحملونها على غير محاملها الظاهرة؛ لما يجدونه من حرج في نفوسهم نتيجة ضعف إيمانهم، والانهزامية النفسيّة أمام الكفار، والانبهار بهم.

فاللهم إنا عبيدك، بنو عبيدك، بنو إمائك، نواصينا بيدك، ماض فينا حكمك، عدل فينا قضاؤك، نسألك اللهم بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك؛ أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا، وجلاء أحزاننا، وذهاب همومنا وغمومنا.

اللهم اجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهلك وخاصتك يا حي يا قيوم، ولا تجعل في قلوبنا حرجاً منه، ولا مما قضى به رسولك صلى الله عليه وسلم.

اللهم صلّ وسلّم وبارك على عبدك ورسولك نبينا محمد، وعلى آله وصحبه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أ.د/ عبد الله بن عمر الدميجي